من الشعراء الصعاليك

عروة بن الورد

بقلم الدكتور

محمد عرفة المغربى

أستاذ الأدب والنقد المساعد فى الكلية

يمثل الشعراء الصعاليك صفحة بارزة فى الشعر الجاهلى حيث يحتلون مكانة بارزة بين سائر الشعراء الجاهليين ، ويعد عروة بن الورد علماً من أعلامهم ، ولذا خصصناه بهذه الصفحات بعد أن عرفنا « الصعلكة والفتوة » ، وعرضنا لأثر البيئة فى ظهورها .

الصعلكة :

الصعلكة فى اللغة : الفقر ، وصعلكه : أفقره ، والصعلوك : الفقير ، وتصعلك : افتقر[1] .

والصعاليك : شبان فقراء أمثال عروة بن الورد ، وتأبط شرا ، والسليك ابن السلكة ، والشنفرى ، ويسمون أيضاً ذؤبان العرب . جمع ذئب ؛ لأنهم يختطفون المال كما تختطف الذئاب فريستها ، ويسمون أيضاً العدائين ، لأنهم كانوا مشهورين بسرعة العدو فى السلب والنهب ، ولكن كانوا مع فقرهم نبلاء . ومن نبلهم أنهم كانوا لا يهجمون إلا على الأشحاء والبخلاء من الأغنياء ، فإن وجدوا غنيا كريماً تركوه ، وإن وجدوا غنياً شحيحاً هاجموه ، فهم لصوص شرفاء ونبلاء ، فكانوا بذلك خيراً من الأغنياء الأشحاء[2] .

وما ذكره الأستاذ أحمد أمين يتمشى مع شرعة الجاهلية التى كانت تبيح السرقة والعدوان ، ولكنه لا يتلاءم أبداً مع مبادىء الإسلام التى جرمت السرقة فى كل صورها وأشكالها ، ومع سائر الناس .

---

(١) القاموس المحيط باب الكاف فصل الصاد .

(٢) الصعلكة والفتوة فى الإسلام ، لأحمد أمين ـ دار المعارف بمصر سلسلة اقرأ ص ١١ إبريل ١٩٥٢ م .

الفتـوة :

وقد قابل أحمد أمين بين الصعلكة والفتوة ومعنى الفتوة فى الأصل الشباب، قالوا : فتى يفتى أى صار شابا ، وهو فتى السن بين الفتاء .

وقد ولد له فى فتاء سنه أولاد : أى فى شبابه ، وأصل كلمة فتى : مصدر فتى فتى كمرح مرحا ثم جعلت وصفا فقالوا : هو فتى : أى شاب ، وجمعوا الفتى على فتيان وفتو وفتية ، والاسم من هذا كله (الفتوة) . . .

ثم نقلوا الكلمة نقلة أخرى لتدل على القوة . قال ابن قتيبة : « ليس الفتى بمعنى الشباب والحدث ، إنما هو بمعنى الكامل الجزل من الرجال ، يدل على ذلك قول الشاعر :

إن الفتى حمال كل ملمـــة ليس الفتى بمنعم الشبان

ويقول آخر :

يا عز هل لك فى شيخ فتى أبداً وقد يكون شباب غير فتيان

فالفتوة على هذا معناها القوة ، ومن ذلك تسميتهم الليل والنهار فتيان لقوتهما . ومنه قول الشاعر :

لم يلبث الفتيان أن عصفا بهم ولكل قفل يسرا مفتاحا

ثم رأيناهم نقلوا معنى الفتى نقلة ثالثة فى قول الجوهرى : الفتى السخى الكريم ، ومثل ذلك ما قال الزمخشرى :

الفتوة هى الحرية والكرم . قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

إن الفتى لفتى المكارم والعلا ليس الفتى بمعالج الصبيان[1]

وهكذا تحولت كلمة الفتوة من الشباب وهو المرحلة المعهودة فى عمر

---

(١) الصعلكة والفتوة ص ١١ وما قبلها بتصرف .

الإنسان إلى مجرد القوة ولو كانت فى شيخ ، ثم تحولت إلى فضائل وشمائل خيرة تكون القوة معينة عليها ومكسبة لها .

أقول : قابل أحمد أمين بين الصعلكة والفتوة وجعل المجتمع الجاهلى مشتملا على نوعين من الشباب (أبناء الذوات) قد يجتمعون ويتخذون لهم محلا مختاراً ، ويعيشون عيشة إباحية ، وفيها خمر ، وفيها غناء وفيها نساء ، وهم مع ذلك كرام . . . وتقابلهم طائفة أخرى من أبناء الفقراء يسمون الصعاليك يشاركونهم فى الكرم ، ويخالفونهم فى أن حياتهم ليست حياة دعة واستمتاع ولكن حياة غزو وسلب ونهب ، وتوزيع عادل على أمثالهم ، يضاف إلى ذلك فرق آخر وهو أن الفتيان يعطون وهم مترفعون ، والصعاليك يعطون أداء لما يرونه واجبا[1] .

هكذا يربط الباحث بين حياة الفتيان وحياة الصعاليك ، وبوضح وجوه الاتفاق فى الكرم والبذل ، ووجوه الاختلاف فى دعة الأولين ، لأنهم لا يحتاجون وسعى الصعاليك لحاجتهم وفقرهم .

ولكنه لم يوفق فى جعله الصعاليك يعطون وهم يعتقدون أنهم متساوون مع زملائهم الفقراء ، ذلك أنهم يعطون تفضلا وعطفا على العاجزين من الفقراء ـ كما سنرى فى حديثنا عن عروة بن الورد ـ فقد ضاق بهم وهم بأن ينالهم ذات مرة ، ولكنه تحمل حتى لا يضيع تفضله وبره .

أصناف من الصعاليك :

إذا كانت الصعلكة لغة معناها : الفقر ، فإنها فى العصر الجاهلى لم تقف عند هذا المعنى اللغوى ، وإنما كانت تدل على من يتجردون للغارات وقطع الطرق ويمكن أن نميز منهم ثلاث مجموعات .

---

(١) المرجع السابق ص ٢٢ وما قبلها بتصرف .

مجموعة من الخلعاء الشذاذ الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائرهم ، مثل : حاجز الأزدى ، وقيس بن الحدادية ، وأبى الطمحان القيسى .

مجموعة من أبناء الحبشيات السود ممن نبذهم آباؤهم ، ولم يلحقوهم بهم لعار ولادتهم ، مثل : السليك بن السلكة ، وتأبط شرا ، والشنفرى ، وكانوا يشركون أمهاتهم فى سوادهم فسموا هم وأضرابهم باسم أغربة العرب .

ومجموعة ثالثة لم تكن من الخلعاء ولا أبناء الإماء الحبشيات غير أنها احترفت الصعلكة احترافا ، وحينئذ قد تكون أفراداً مثل : عروة بن الورد العبسى ، وقد تكون قبلة برمتها ، مثل : قبيلتى هذيل وفهم اللتين كانتا تنزلان بالقرب من مكة والطائف على التوالى[1] .

حياة العرب مهدت لظهور الصعلكة :

نعرف أن حياة العرب فى العصر الجاهلى كانت تقوم على السلب والنهب، ذلك أن قوام حياتهم كان الماء والعشب الذى ترعاه إبلهم .

« وكثيراً ما كانت تشح عليهم الصحراء بمائها وكلئها ، فإذا هم فى رحلة مستمرة من موطن إلى آخر ، وهنا يكون الاصطدام بغيرها من القبائل التى ربما تكون سبقتها إلى المرعى فتحاول انتزاعه منها بأسنة الرماح .

وفى ذلك يقول معوذ الحكماء معاوية بن مالك :

إذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غضابا

ولذلك كانت القبيلة دائما شاكية السلاح تحمى حماها ومنازلها وآبارها ومراعيها ، وقد يدفعها القحط أو قلة الماء والكلأ إلى الإغارة على القبائل

---

(١) تاريخ الأدب العربى العصر الجاهلى د . شوقى ضيف طبعة دار المعارف الثامنة ١٩٧٧ ص ٣٧٥ .

المجاورة للسلب والنهب ولو كانت هذه القبائل يجمعها بها أصل واحد ، كما يقول القطامى :

وكن إذا أغرن على جناب ... وأعوزهن نهب حيث كانا
أغرن من الضباب على حلول ... وضبة أنه من حان حانا
وأحيـــانا على بكر أخينا ... إذا ما لم نجـــد إلا أخانا

فتسيل الدماء ويسقط القتلى ، وكثيراً ما تلد تلك المعركة معارك أخرى طلباً لثأر فات ، أو انتقاما لمال غصب ، أو محواً لعار هزيمة سبقت .

وهكذا كانت حياتهم سلسلة من المعارك التى تنوعت أسبابها وكثرت ، مما يجعل العلاقة بين القبائل توشك أن تكون دموية الطابع فى أغلب الأحيان.

ولعل خير ما يصور تلك الحياة القائمة على كثرة الحروب والمنازعات التى لا تنتهى ، قول دريد بن الصمة :

أبى القتل إلا آل صمـــة أنهم
أبوا غيره ، والقدر يجرى إلى القدر
يغـــار علينـــا واترين فيشتفى
بنـــا إن أصبنا أو نغير على وتر
قسمنا بذاك الدهر شطرين بيننا
فما ينقضى إلا ونحن على شطر[1]

وما كان بين العرب من حروب وقتال يسمى بأيام العرب ، وهى كثيرة عديدة فى الجاهلية وفى الإسلام تضمنتها مصادر عديدة كالأغانى لأبى الفرج فى كثير من تراجمه ، وكذلك العقد الفريد . وجمعها بعض الباحثين المعاصرين

---

(١) الشماخ بن ضرار الذبيانى ـ حياته وشعره لصلاح الهادى طبعة دار المعارف سنة ١٩٦٨ ص ٢٩ بتصرف يسير .

فى مرجعـــين كبيرين هما (أيام العرب فى الجاهلية) ، (وأيام العرب فى الإسلام[1]) جمعا كثيراً من حروب العرب وأشعارها ومفاخرها ومثالبها على السواء .

والذى يهمنا هنا أن نقول : إن حياة العرب فى العصر الجاهلى لم تكن حياة شريفة نزيهة ، وإنما كانت تقوم على الإغارة مما مهد لظهور الصعاليك ، وجعل سيرتهم مألوفة ، وسعيهم مقبولا ، وفعالهم أدنى إلى البطولة والشرف فى هذا المجتمع الذى كان يمجد القوة ، ولا يرعى حرمة للملكية ما دام صاحبها لا يستطيع عنها الدفاع .

نسب عروة ولقبه :

عروة بن الورد بن زيد بن عبد الله بن ناشب بن هريم بن لديم بن عوذ بن غالب بن قطيعة بن عبس .

فهو عبسى ينتهى نسبه إلى مضر بن نزار[2] .

وقبيلة عبس تشتهر بين العرب بالبأس والقوة ، ويكفينا أنها أنجبت عنترة بن شداد البطل المشهور فى تاريخ العرب ، ومما يروى فى هذا المجال ما ذكره الأغانى عن عمر بن شبة قال :

بلغنى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال للحطيئة : كيف كنتم فى حربكم ؟ قال : كنا ألف حازم . قال : وكيف ؟ قال : كان فينا قيس بن زهير وكان حازما وكنا لا نعصيه ، وكنا نقدم إقدام عنترة ، ونأتم بشعر

---

(١) الكتابان من طبعة عيسى الحلبى تأليف المرحوم محمد أحمد جاد المولى وآخرين .

(٢) الأغانى لأبى الفرج - المجلد الثالث ص ٩١٩ ، والأصمعيات ص ٤٣ .

عروة بن الورد ، وننقاد لأمر الربيع بن زياد[1] .

وهى القبيلة التى دارت معها حرب داحس والغبراء سنوات طوالا ، وكانت وراء شعر زهير بن أبى سلمى الذى دعا فيه إلى السلام ، وصور الحرب صوراً شنعية فى معلقته المشهورة والتى يقول فيها :

تداركتما عبسا وذبيان بعدما تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم

وكان ورد بن حابس العبسى قتل هرم بن ضمضم المرى فى حرب عبس وذبيان قبل الصلح ، ثم اصطلح الناس ، ولم يدخل حصين بن ضمضم أخو هرم فى الصلح ، وحلف لا يغسل رأسه حتى يقتل ورد بن حابس أو رجلا من بنى عبس ، ثم من بنى غالب ثم أصلح الحارث بن عوف وهرم بن سنان بين المتقاتلين مما دعا زهيراً إلى تمجيد رائدى الصلح وإنشاء أكثر معلقته[2] .

وكان يلقب بعروة الصعاليك لجمعه إياهم وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا فى غزواتهم ، ولم يكن لهم معاش ولا مغزى .

وقيل : إنه لقب بذلك لقوله :

لحى الله صعلوكا إذا جن ليـــله
مصافى المشاش آلفا كل مجـــزر

يعد الغنى من دهره كل ليـــلة
أصاب قراها من صديق ميسر

وقد صعلوك صفيحة وجهـــه
كضوء شهاب القابس المتنور[3]

---

(١) الأغانى ص ٩٢٠ .

(٢) ديوان زهير بن أبى سلمى صنعة الأعلم الشنتمرى طبعة بيروت ص ٨ وما بعدها بتصرف .

(٣) المشاش : كل عظم هش دسم ـ الأغانى ص ٩١٩ بتصرف .

وسواء أكان سبب تلقيبه فعله مع الصعاليك من جمعهم والقيام بأمرهم أم شعره الذى قاله وأنحى فيه على الخامل من الصعاليك ، ومدح قويهم وصاحب البأس منهم . . فإن ذلك يدل على أنه كان مهتما بأمر الصعاليك بحيث يحتلون من فكره وحياته وفنه الشيء الكثير ، وجاء ذلك اللقب دليلا على هذا الاهتمام وتلك الرعاية .

أخلاق عروة وسجاياه :

كان عروة مثالا فى الصعاليك بلا مراء ، فلم يؤثر عن غيره أنه قام بأمر الصعاليك قيام عروة وقد تكرر ذلك منه ، كما تكرر ذكره والحديث عنه .

حدث الأخفش عن ثعلب عن ابن الأعرابى عن أبى فقعس قال :

كان عروة بن الورد إذا أصابت الناس سنة شديدة تركوا فى دارهم المريض والكبير والضعيف ، وكان عروة يجمع أشباه هؤلاء من دون الناس من عشيرته فى الشدة ثم يحفر لهم الأسراب ، ويكنف عليهم الكنف(١) ويكسبهم ، ومن قوى منهم إما مريض يبرأ من مرضه أو ضعيف تثوب قوته خرج به معه فأغار ، وجعل لأصحابه الباقين فى ذلك نصيبا حتى إذا أخصب الناس وألبنوا ، وذهبت السنة ألحق كل إنسان بأهله وقسم له نصيبه من غنيمة إن كانوا غنموها ، فربما أتى الإنسان منهم أهله وقد استغنى ، فلذلك سمى عروة الصعاليك(٢) .

ويؤخذ من ذلك أن عروة كان يتصف بالشجاعة حيث يأخذ هؤلاء المتروكين ويغير بالقادر منهم وهم فى الغالب قليلو الغناء ضعيفو البأس .

---

(١) أى يتخذ لهم حظائر يؤويهم إليها ، واحدها : كنيف .
(٢) الأغانى ص ٩٢٥ وما قبلها .

وإنه كان ذا نزعة إنسانية تظهر فى بره بهؤلاء حيث يبنى لهم ما يحتمون به من شدة السنة وويلات الأرض من حيوان أو إنسان أو نحوهما .

فاتخاذ الكنيف لهم ليحتموا به ، فكر صائب وتصرف سليم يتفق مع ضرورات الحياة وقتذاك .

ثم إنه كان صاحب إيثار حيث يقسم مغانمه وما كسبه مع هؤلاء حتى يعودوا بغنائم ربما أغنتهم أى جعلتهم أغنياء موسرين ، ولو كان شحيح النفس بخيلا لحاز ما جمعه وغنمه وانتقل به من الفقر إلى الغنى واليسار ، ولكنه آثر جميل الذكر ، وحسن الحديث بين الناس .

على أن من أخلاقه أيضاً كظم الغيظ والتحكم فى النفس وقت الغضب، والجنوح إلى اللين مهما كان الحال .

وله غير الشجاعة والبر والكرم وكظم الغيظ صفات عديدة فى النبل شهد له بها الخلفاء كما شهدت له بها امرأته أيضاً عند فراقه ، وسنوردها بعد حين .

شىء من الأحداث التى مرت به :

(أ) مع أصحاب الكنيف :

قالوا : ضاقت حال عروة فى بعض السنين فقال :

لعل ارتيادى فى البلاد وبغيتى ... وشدى حيازيم المطية بالرحل
سيدفعنى يوماً إلى رب هجمة ... يدافع عنها بالعقوق وبالبخل[1]

فزعموا أن الله عز وجل قيض له وهو مع قوم من هلاك عشيرته فى

(١) الهجمة من الإبل أولها أربعون إلى مائة أو ما بين السبعين والمائة فإذا بلغت المائة فهى « هنيدة » .

شتاء شديد ناقتين ، فنحر لهم إحداهما وحمل متاعهم وضعفاءهم على الأخرى، وجعل ينتقل بهم من مكان إلى مكان ، وكان بين النقرة والزبدة[1] ، فنزل بهم ما بينهما بموضع يقال له « ما وان »[2] ثم إن الله قيض له رجلا صاحب مائة من الإبل قد فر بها من حقوق قومه ، فقتله وأخذ إبله وامرأته ، وكانت من أحسن النساء ، فأتى بالإبل أصحاب الكنيف فحلبها وحملهم عليها ، حتى إذا دنوا من عشيرتهم أقبل يقسمها بينهم ، وأخذ مثل نصيب أحدهم ، فقالوا : لا واللات والعزى لا نرضى حتى تجعل المرأة نصيبا فمن شاء أخذها ، فجعل يهم بأن يحمل عليهم فيقتلهم وينتزع الإبل منهم ، ثم يذكر أنهم صنيعته وأنه إن فعل ذلك أفسد ما كان يصنعه فأفكر طويلا ثم أجابهم إلى أن يرد عليهم الإبل إلا راحلة يحمل عليها المرأة حتى يلحق بأهله ، فأبوا ذلك عليه حتى انتدب رجلا منهم فجعل له راحلة من نصيبه . فقال عروة فى ذلك :

ألا إن أصحاب الكنيف وجدتهم ... كما الناس لما أخصبوا وتمولوا
وإنى لمدفوع إلى ولاؤهم ... بماوان إذ نمشى وإذ نتململ
وإذما يريح الحى صرماء جونة ... ينوس عليها رحلها ما يحلل
عليها من الولدان ما قد رأيتهم ... وتحشى بجنبيها أرامل عيل
وقلت لها يا أم بيضاء فتية ... طعامهم من القدور المعجل
مضيع من النيب المسان ومسخن ... من الماء تعلوه بآخر من عل
وإنى وإياكم كذى الأم أرهنت ... له ماء عينيها تفدى وتحمل
فلما ترجت نفسه وشبابه ... أتت دونها أخرى حديداً تكحل
فباتت لحد المرفقين كليهما ... توحوح مما نابها وتولول

---

(١) مكانان .

(٢) قريبة من أودية العلاة من أرض اليمامة .

تخير من أمرين ليسا بغبطة هو الثكل إلا أنها تتجمل
كليلة شيباء التي لست ناسياً وليلتنا إذ من ما من قرمل[1]

والقصة تدل على شدة ما نزل به من كرب في هذه السنة المجدبة ، وأنه أطال التفكير وتمنى الخير لنفسه ولمن يصطفيهم من الصعاليك ، ووسع عليهم بأول ما أصاب ثم غنم الكثير بعد ذلك ، ولكنهم حينما رأوه استأثر بالمرأة شغبوا عليه ولم يطيعوه حتى نزل لهم عن نصيبه من الإبل ، ولكنهم لم يجودوا له بناقة تحملها حتى من عليه أحدهم وهو قرمل براحلة .

وقد دعاه ذلك إلى التفكر في أمره معهم وهم بهم -- وكان يستطيع حرمانهم — ولكنه كبح جماح غضبه ، ومنع نفسه من البطش بهم وهم ضعاف ، وآثر أن يبقى صنيعه ومعروفه مذكوراً غير مضيع ولا ممحوق .

وهذا ما جعل بعض الباحثين المعاصرين يرى أن الصعاليك دعاة اشتراكية عملية ، لأنهم يؤثرون الموت على حياة الحرمان . قال عروة :

إذ المرء لم يبعث سواماً ولم يرح
عليه ، ولم تعطف عليه أقاربه
فللموت خير للفتى من حياته
فقيراً ومن مولى تدب عقاربه[2]

---

(١) ديوانه ص ٥٨ وما قبلها طبعة دار صادر بيروت . والصرماء : ناقة مقطوعة الأخلاف ليذهب لبنها وتشتد ، وجونة : سوداء . ينوس : يتحرك ، وصف القدر فشبهه بالناقة وشبه الرحل بالأثافي التي توضع عليها القدر ، وأم بيضاء : كناية عن القدر ، والمضيع : اللحم . والنيب : الناقة المسنة . والحديدة : الزوجة ، وليلة شيباء : الداهية . وقرمل : رجل .

(٢) راجع « الحياة العربية من الشعر الجاهلي » للدكتور أحمد محمد الحوفي طبعة دار نهضة مصر — الطبعة الخامسة سنة ١٩٧٢ ص ٣٠٤ وما بعدها .

وإن كان ذلك ترك فى نفسه بعض الأثر الذى سجله فى شعره .

وشعر عروة فى هذا المجال شعر اللحظة العابرة ، وشعر الخاطر السريع والفكر المتجدد ، والحدث المتلاحق .

وفرق بينه وبين شعر امرىء القيس أو شعر زهير والنابغة وغيرهم من أصحاب الاطمئنان والتروى ، والفن الذى تبدو فيه الصنعة والإجادة إلى حد بعيد .

٢ — مع زوجته سلمى :

قالوا : أغار عروة بن الورد على مزينة ، فأصاب منهم امرأة من كنانة بكراً ، فاستاقها ورجع وهو يقول :

تبغ عـــديا حيث حلت ديارها
وأبناء عوف فى القرون الأوائل
فإلا أنل أوسا فإنى حسبهـــا
بمنبطح الأدغال من ذى السلاسل

وكانت تسمى سلمى وتكنى أم وهب ، فأعتقها واتخذها لنفسه ، فمكثت عنده بضع عشرة سنة وولدت له أولاداً ، وهو لا يشك فى أنها أرغب الناس فيه ، وهى تقول له : لو حججت بى فأمر على أهلى وأراهم ، فحج بها فأتى مكة ثم أتى المدينة ، وكان يخالط من أهل يثرب بنى النضير فيقرضونه إن احتاج ويبايعهم إذا غنم .

وكان قومها يخالطون بنى النضير فأتوهم وهو عندهم ، فقالت لهم سلمى : إنه خارج بى قبل أن يخرج الشهر الحرام فتعالوا إليه وأخبروه أنكم تستحون أن تكون امرأة منكم معروفة النسب صحيحته سبية وافتدونى منه ، فإنه لا يرى أنى أفارقه ولا أختار عليه أحدا .

فأتوه فسقوه الشراب ، فلما ثمل قالوا له : فادنا بصاحبتنا فإنها وسيطة النسب فينا معروفة وإن علينا سبة أن تكون سبية فإذا صارت إلينا وأردت معاودتها فاخطبها إليها فإنا ننكحك . فقال لهم : ذاك لكم ولكن لى الشرط فيها أن تخيروها فإن اختارتنى انطلقت معى إلى ولدها ، وإن اختارتكم انطلقتم بها . قالوا : ذلك لك . قال : دعونى أله بها الليلة ، فلما كان الغد جاءوه فامتنع من فدائها . فقالوا له : قد فاديتنا بها منذ البارحة ، وشهد عليه بذلك جماعة ممن حضر ، فلم يقدر على الامتناع ، وفاداها فلما فادوه بها خيروها فاختارت أهلها ، ثم أقبلت عليه فقالت : يا عروة أما أن أقول فيك وإن فارقتك الحق ، والله ما أعلم امرأة من العرب ألقت سترها على بعل خير منك وأغض طرفا وأقل فحشا وأجود يداً وأحمى لحقيقه ، وما مر على يوم منذ كنت عندك إلا والموت فيه أحب إلى من الحياة بين قومك ، لأنى لم أكن أشأ أن أسمع امرأة من قومك تقول : قالت أمة عروة كذا وكذا إلا سمعته ، ووالله لا أنظر فى وجه غطفانية أبداً ، فارجع راشداً إلى ولدك وأحسن إليهم .

وقالوا : إن قومها أغلوا بها الفداء ، وكان معه طلق وجبار أخوه وابن عمه ، فقالا له : والله لئن قبلت ما أعطوك لا تفتقر أبداً وأنت على النساء قادر متى شئت ، وكان قد سكر فأجاب إلى فدائها فلما صحا ندم .

قالوا : وجاءت سلمى تثنى عليه فقالت : والله إنك ما علمت لضحوك مقبلا (١) كسوب مدبراً ، خفيف على متن الفرس ، ثقيل على العدو طويل العماد كثير الرماد راضى الأهل والجانب فاستوص بنبيك خيرا .

قالوا : وبعد أن فارقته تزوجها رجل من بنى عمها ، فقال لها يوماً :

---

(١) كناية عن شجاعته عند اللقاء .

يا سلمى ، أثنى على كما أثنيت على عروة ، فقالت له : لا تكلفنى ذلك فإنى إن قلت الحق غضبت ولا واللات والعزى لا أكذب ، فألح عليها فأقبلت وهو فى ندى القوم ـ فرموها بأبصارهم فوقفت عليهم وقالت : انعموا صباحا ، إن هذا عزم على أن أثنى عليه بما أعلم ، ثم أقبلت عليه فقالت : والله ، إن شملتك لالتحاف وإن شربك لاشتفاف (١) ، وإنك لتنام ليلة تخاف ، وتشبع ليلة تضاف ، وما نرضى الأهل ولا الجانب ثم انصرفت .

فلامه قومه وقالوا له : ما كان أغناك عن هذا القول (٢) .

والقصة تدل على أشياء عديدة :

أولا : كان عروة منسجماً مع نفسه وسلوكه فى سبى تلك المرأة ومعاشرته إياها ، إذ كان ذلك مألوفاً عند العرب كما نعرف (٣) .

ثانياً : شعرت المرأة بشىء من الضيق والمرارة من إطلاق نساء قومه عليها لقب أمة ، ويبدو أنها كتمت المرارة فى نفسها ، ولم تشك له حتى لا يرتاب فى أمرها ، ولتتحين الفرص للخلاص منه .

ثالثاً : قبل عروة فداءها اطمئناناً إلى رضاها عنه ، وغفل عن حبها الحرية وحسن الأحدوثة ، فكان أن انحازت إلى قومها ولم يستطع الرجوع فى قوله .

رابعاً : ظلت المرأة على رأيها فيه ، ووصفته بما شاع وذاع بين الناس مما يقطع بكرمه وشجاعته وعفة نفسه وبذله الرضى للأهل .

---

(١) الاشتفاف : شرب كل ما فى الإناء وكان ذلك مذموماً .
(٢) الأغانى ص ٩٢٤ وما قبلها بتصرف ، وديوانه ص ٣٠ وما بعدها .
(٣) راجع المرأة فى الشعر الجاهلى للدكتور أحمد محمد الحوفى .

خامساً : شهدت تلك المرأة على زوجها من قومها بما أغضبه وبما يتناقض مع وصفها عروة مما كان له أثر فى قومه وفى نفسه كذلك .

سادساً : ظل عروة يذكر تلك المرأة ، ويبدى ندمه على فراقها فى شعره ، فقال :

أرقت وصحبتى بمضيق عمق ... لبرق ، فى تهامة مستطير[1]
إذا نلت استهل على قديد ... يحور ربابه حور الكسير[2]
تكشف عائذ بلقاء تنفى ... ذكور الخيل عن ولد شفور[3]
سقى سلمى وأين ديار سلمى ... إذا حلت مجاورة السرير[4]
إذا حلت بأرض بنى على ... وأهلى بين زامرة وكير
ذكرت منازلا من أم وهب ... محل الحى أسفل ذى النقير
وأحدث معهد من أم وهب ... معرسنا بدار بنى النضير
وقالوا : ما تشاء فقلت ألهو ... إلى الإصباح آثر ذى أثير[5]
بآنسة الحديث ، رضاب فيها ... بعيد النوم كالعذب القصير
أطعت الآمرين بصرم سلمى ... فطاروا فى غضاه اليستعور[6]

---

(١) عمق : بلد بالمدينة ، مستطير : منتشر فى الأفق .

(٢) قديد : محل من مكة على مرحلتين ، استهل : نزل ، ربابة : سحابة . يحور : يرجع ، الكسير : الذى يبطىء فى المشى .

(٣) العائذ : الحديثة النتاج وتكشفها رفع يدها لتنحى ذكور الخيل عن ولدها فيبدو بلق بطنها ، فشبه البرق فى سواد الغيم ببياض هذه الفرس فى بطنها ، شفور : بمعنى راحة رجليها للدفاع .

(٤) السرير : موضع بلادها .

(٥) أثر ذى أثير : مثل قولك : أول كل شىء .

(٦) اليستعور : موضع فيه عضاه من سمر وطلح أى أطعت من أمرونى بأخذ الفداء فتفرقوا عنى إلى أرض بعيدة لا يدخلها أحد من الخوف .

سقونى النسء ثم تكنفونى عداة الله من كذب وزور[1]
وقالوا : لست بعد فداء سلمى بمغن ، ما لديك ولا فقير
ألا وأبيك ، لو كاليوم أمرى ومن لك بالتدبر فى الأمور
إذاً لملكت عصمة أم وهب على ما كان من حسك الصدور
فيا للناس كيف غلبت نفسى على شىء ويكرهه ضميرى
ألا ياليتنى عاصيت طلقا وجباراً ، ومن لى من أمير[2]

وشعر عروة يسجل الحادثة ، ويبرز شعوره نحوها وأسفه لفراقها ، وفيه نواة الشعر القصصى من حدث وشخصيات وحوار ، وإظهار العواطف والأحاسيس ، وهى هنا الندم على ما كان من فراق لا رجعة فيه .

٣ — مع ليلى بنت شعواء :

ويبدو أن قصص السبى تكررت عند عروة ، قالوا : سبى عروة امرأة من بنى هلال بن عامر بن صعصعة يقال لها : ليلى بنت شعواء ، فمكثت عنده زماناً وهى معجبة له تريه أنها تحبه ، ثم استزارته أهلها فحملها حتى أتاهم بها ، فلما أراد الرجوع أبت أن ترجع معه ، وتوعده قومها بالقتل ، فانصرف عنهم وأقبل عليها فقال لها : يا ليلى خبرى صواحبك عنى كيف أنا . فقالت : ما أرى لك عقلا ، أترانى قد اخترت عليك وتقول : خبرى عنى ؟ فقال فى ذلك :

تحن إلى ليلى بحر بلادها وأنت عليها بالملا كنت أقدرا[3]

---

(١) سقونى النسء : يقال لكل مسكر : نسء ، أى سقونى نسأ إنسانى الحب الذى كنت أجده .

(٢) طلق وجبار : أخوه وابن عمه ـ ديوانه ص ٣٣ .

(٣) حر البلاء : وسطها .

وكيف ترجيها وقد حيل دونها وقد جاوزت حيا بتيماء منكرا
لعلك يوما أن تسرى ندامة على بما جشمتنى يوم عضورا[1]

وله أبيات كثيرة يظهر فيها أنه ندم على فراقها وأنه يتمنى لها الشر والسوء حتى تذكره وتأسف على فراقه وخداعه .

وقد يكون عروة سريع القرار ، متحمسا إلى حد كبير أيضاً مما دعاه إلى قبول خداعها حتى وصفته بقلة العقل وعدم التبصر .

٤ — عروة يرد على امرأته :

(١) قال ابن الأعرابى : أجدب ناس من بنى عبس فى سنة أصابتهم ، فأهلكت أموالهم وأصابهم جوع وبؤس شديدان ، فأتوا عروة بن الورد فجلسوا أمام بيته ، فلما بصروا به صرخوا وقالوا : يا أبا الصعاليك أغثنا ، فرق لهم وخرج ليغزو بهم ويصيب معاشا ، فنهته امرأته عن ذلك لما تخوفت عليه من الهلاك ، فعصاها وخرج غازيا ، فمر بمالك بن حمار الفزارى فسأله أين يريد ؟ فأخبره ، فأمر له بجزور فنحرها فأكلوا منها ، وأشار إليه مالك أن يرجع فعصاه ومضى حتى انتهى إلى بلاد بنى القين ، فأغار عليهم فأصاب هجمة عاد بها على نفسه وأصحابه . فقال :

أرى أم حسان الغداة تلومنى تخوفنى الأعداء والنفس أخوف
تقول سليمى ، لو أقمت لسرنا ولم تدر أنى للمقام أطوف
لعل الذى خوفتنا من أمامنا يصادفه فى أهـــله المتخلف

وهذا المعنى ، وهو الحديث عن اقتحام المخاطر ، ومجابهة الحتوف وعدم الركون إلى الدعة والخوف كثير فى شعر عروة . ومنه قوله :

سيدفعنى يوما إلى رب هجمة يدافع عنها بالعقوق وبالبخل

(١) تسرى : تظهرى ، جشمتنى : حملتنى ـ الأغانى وديوانه .

قليـــل تواليها وطالب وترها
إذا صحت فيها بالفوارس والرحل[1]
إذا ما هبطنا منهـــلا فى مخوفة
بعثنا ربيئا فى المرابىء كالجـــذل[2]
يقلب فى الأرض الفضـــاء بطرفه
وهن مناخات ومرجلنا يغـــلى[3]

٥ — وروى الجاحظ أبياتا له يكرر فيها هذا المعنى ، وهو عدم ركونه إلى الدعة ، وسعيه إلى الغنى بالغارة والسلب . قال :

ذريني للغنى أسعى فـــإن رأيت الناس شرهم الفقير
وأهونهم وأحقـــرهم لديهم وإن أمسى له كرم وخير
ويقصى فى الندى وتزدريه حليلته وينهره الصغـــير
وتلقى ذا الغنى وله جلال يكاد فؤاد صاحبه يطـــير
قليـــل ذنبه والذنب جم ولكن الغنى رب غفور[4]

والأبيات تفيض بنقد المجتمع الجاهلى الذى كان يحمل على الفقراء ويستهين بهم ، وينفر منهم ويتجرأ عليهم دائما ، أما الأغنياء فإن المجتمع كان يوقرهم ويحترمهم ، ويعفو عما يكون منهم من عورات أو نقائص .

ولا غرو أن يحرص عروة على المال ، ولكن حرصه كان فى سبيل هدف شريف ، وهو كسب الفقير والعاجز . وقالوا عن هذه الأبيات إن

---

(١) قليل تواليها : أى قليل من يتلوها ليدافع عنها لأنا نسبق بها .
(٢) الربىء : الرقيب ، المرابى : أما كن المراقبة .
(٣) طرفه : بصره ، وهن مناخات : أى ونحن قد أنخنا لنعد الطعام ـ ديوانه ص ٥٥ .
(٤) البيان والتبيين للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون . الجزء الأول ٢٣٤ .

عبد الله بن جعفر بن أبي طالب قال لمعلم ولده : لا تروهم قصيدة عروة هذه ، لأن هذا الشعر يدعوهم إلى الاغتراب عن أوطانهم[1] .

وهذه ولا شك شهادة لشعر عروة وأثره البالغ فى النفوس .

دستور الصعاليك :

وروى الأصمعى فى مختاراته ، قصيدة لعروة يرد فيها على امرأته وكانت نهته عن المخاطرة بنفسه ، فبين لها أنه يبغى بذلك المجد وجمع المال لها ليكفيها بعد موته ، ثم يرسم سياسة الصعاليك ، فهو لا يرضيه الصعلوك الخامل الذى لا يسعى لاكتساب المال ، وإنما يريده أن يكون غازيا جريئا يخشاه الناس فى الحضر والمغيب لا يأمنون غزوه ، ثم هو يريد أن يكفى قبيلتى معتم « وزيد » ويسد حاجتهما ، ويؤكد أنه سيواصل الغارات متزعما لأصحابه لكى يشبع رغبة الجود والبذل التى أخذ نفسه به . قال :

أقلى على اللوم يا ابنة منذر ... ونامى فإن لم تشتهى النوم فاسهرى
ذرينى ونفسى أم حسان إننى ... بها قبل أن لا أملك البيع مشترى[2]
أحاديث تبقى والفتى غير خالد ... إذا هو أمسى هامة تحت صبر[3]
ذرينى أطوف فى البلاد لعلنى ... أخليك أو أغنيك عن سوء محضر[4]

---

(١) الأغانى ص ٩٢١ .

(٢) البيع هنا بمعنى الشراء . يقول : ذرينى أشترى بمالى مجدا وذكرا فى حياتى فذرينى أبادرها قبل أن يحول الموت بينى وبينها فلا أملك الشراء .

(٣) الهامة : فى زعم العرب روح القتيل الذى لم يدرك ثأره ، والصبر : القبر .

(٤) التخلية : الفراق بقتل .

فإن فاز سهم للمنيـــة لم أكن
جزوعا وهل عن ذاك من متأخر
وإن فاز سهمى كفكم عن مقاعد
لكم خلف أدبار البيوت ومنظر
أبى الخفض من يغشاك من ذى قرابة
ومن كل سوداء المعاصم تعترى[1]
ومستهنىء زيـــد أبوه فلا أرى
له مدفعا فاقنى حياءك واصبرى[2]
لحى الله صعلوكا إذا جن ليـــله
مضى فى المشاش آلفا كل مجزر[3]
يعد الغنى من دهره كل ليـــلة
أصاب قراها من صديق ميسر
قليل التماس المال إلا لنفســـه
إذا هو أضحى كالعريش المجور[4]
ينـــام عشاء ثم يصبح قاعدا
يحت الحصى عن جنبـــه المتعفر

---

(١) سوداء المعاصم : يريد أنها جهدت من الجدب والهزال .
(٢) المستهنىء : طالب الهنىء وهو العطاء .
وزيد أبوه : أى قريب عروة لأنه ابن زيد جد عروة .
فاقنى حياءك : احفظيه .
(٣) لحاه : قبحه ولعنه ، المشاش : رءوس العظام . الآلية : التى يمكن مضغها ، وأورد الكامل ج ١ ص ٧٨ الأبيات من هنا .
(٤) العريش : خيمة من خشب أو جريد ، المجور : الساقط .

يعين نساء الحى ما يستعنه ... فيضحى طليحا كالبعير المحسر[1]
ولله صعلوك صفيحة وجهه ... كضوء شهاب القابس المتنور[2]
مطلا على أعدائه يزجرونه ... بساحتهم زجر المنيح المشهر[3]
وإن بعدوا لا يأمنون اقترابه ... تشوف أهل الغائب المنتظر
فذلك إن يلق المنية يلقها ... حميداً وإن يستغن يوما فأجدر
أتهلك «معتم» و «زيد» ولم أقم ... على ندب يوما ولى نفس محظر[4]
سيفزع بعد اليأس من لا يخافنا ... كواسع فى أخرى السوام المنفر[5]
نطاعن عنها أول القوم بالقنا ... وبيض خفاف وقعهن مشهر
ويوما على غارات نهد وأهله ... ويوما بأرض ذات شث وعرعر[6]
يناقلن بالشط الكرام أولى النهى ... نقاب الحجاز فى السريح المسير[7]
يريح على الليل أعطاف ماجد ... كريم، ومالى سارحا مال مقتر[8]

---

(١) الطليح : المجهد ، والمحسر : المعيى .

(٢) صفيحة وجهه : بشرة جلده ، الشهاب : شعلة من نار .

(٣) مطلا على أعدائه : غازيا لهم ، يزجرونه : يصيحون فيه . المنيح : قدح مستعار سريع الخروج والفوز ، يستعار : فيضرب ثم يرد لصاحبه .

(٤) معتم وزيد : بطنان من عبس وهما جداه ، والندب : الخطر .

(٥) كواسع : خيل تطرد إبلا تكسبها فى آثارها .
السوام : الإبل السائمة ، المنفر : المذعور .

(٦) شث وعرعر : نوعان من أشجال الجبال أى أن غاراتهم شاملة عامة .

(٧) المناقلة : حسن نقل القوائم فى سرعة السير ، والشمط : جمع أشمط : وهو ما خالط سواد شعره بياض ، أراد بهم الفرسان ذوى السن والتجربة ، والنقاب : الطريق الضيق فى الجبل . السريح : السيور تشد بها النعال ، المسير : الذى جعل سيورا .

(٨) يريح : يرد ، ماجد : يريد نفسه ، ومالى : إبلى . المقتر : الفقير =

والأبيات من خير شعر عروة ، وأوضحه فى الدلالة على منهجه وسلوكه فى الحياة ، وسيره على الدرب الصعب ، والطريق الشاق العسير ، طريق الصعاليك فى مجتمع يبيح هذا اللون من السلوك .

عروة فى عيون التاريخ :

كان العرب يمجدون البطولة ، ويعيشون على القيم ويفخرون بالمثل ، ويحرص الواحد منهم على حسن الذكر وجميل الأحدوثة بين الأجيال ، ومن هنا كان حرصهم على الكرم والشجاعة والعفة وغيرها من السجايا .

وقد تكون من هذا كله تراث ضخم عبر التاريخ ، وفى ذاكرة الزمن ، وتناقل الناس فعال الخير لهذا أو ذاك عشرات بل مئات السنين .

وأرفع من يحرص الناس على أن يحيوا فى ذاكرتهم الخلفاء والحكام ، لأنهم من أجل الناس حكما وتقديراً بلا مراء ، وقد رزق عروة من حسن الأحدوثة ما جعله يحيا فى أذهان أعلى الخلفاء منزلة فى دول الإسلام .

وقد تكون أعمال عروة هينة يسيرة ، وما جاد به قليل وشجاعته أهون وأقل من غيره بكثير ، ولكنه رغم ذلك رزق حسن الذكر ، وجميل الأثر وسيرورة الفعال بين الناس جميعا .

١ ــ قال عبد الملك بن مروان : ما يسرنى أن أحداً من العرب ولدنى إلا عروة بن الورد ، لقوله :

إنى امرؤ عافى إنائى شركة ... وأنت امرؤ عافى إنائك واحد
أقسم جسمى فى جسوم كثيرة ... وأحسو قراح الماء والماء بارد

= المقل ـ الأصمعيات تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ـ طبعة دار المعارف بمصر ١٩٧٩ ص ٤٧ وما قبلها ، والكامل للمبرد جـ ١ ص ٧٨ طبعة المكتبة التجارية الكبرى .

أتهزأ مني أن سمنت وأن ترى بجسمي مس الحق والحق جاهد[1]

وأنت ترى أن عبد الملك خليفة بني أمية العظيم كان يسره أن يكون عروة أباه بدلا من آبائه العظام، لكلامه المثالي الأمين الذي يعبر عن كرمه، وعطائه حتى نال منه الجوع فهزل جسمه وأصابه الجهد والشحوب، وكان يستطيع أن يأكل وحده فيمتلىء شبعا وسمنا، ولكنه آثر الجوع والعطاء وحسن الذكر وتخفيف آلام الحياة عن إخوانه الصعاليك الضعفاء، ترى هل تجد إطراء فوق هذا الإطراء؟ ومديحا أفضل من كلام خليفة المسلمين!!

ويذكره عبد الملك مرة ثانية فيقول:

« من زعم أن حاتما أسمح الناس فقد ظلم عروة بن الورد ».

فهو يراه أكرم من حاتم، لأن حاتما كان يجد ما تسمح به نفسه، أما عروة فكان لا يجد وإنما يغزو ويعرض نفسه للخطر لتجود بما غنمه، فالمال عنده أصعب وهو محفوف بالشر، ومع ذلك يجود به في رضى وسماحة، فهو أكرم من حاتم وأعلى كعبا في هذا المضمار.

(ب) أما معاوية رضي الله عنه فقال:

لو كان لعروة بن الورد ولد لأحببت أن أتزوج إليهم[2].

ومعنى هذا: أن معاوية يرى عروة وولده كفئا له في نسبه وشرفه ويتمنى أن يصهر إليهم لو وجد ذلك، ولكن حال دونه عدم الولد، وهي شهادة تقدير ووسام فخار يضعه مؤسس دولة الأمويين على صدر عروة، ويحيي به ذكره بين الناس.

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة تحقيق أحمد محمد شاكر طبعة دار التراث العربي ١٩٧٧ ص ٦٧٩ الجزء الثاني.

(٢) الأغاني.

(ج) أما أبو جعفر المنصور الخليفة الثانى لبنى العباس ومؤسس دولتهم، فعروة عنده مضرب المثل فى الشجاعة والذكاء، وهو يروى أحاديثه ويفيض بها على من يغشى مجلسه من المسامرين.

ويورد له أبو جعفر قصتين تتعلق إحداهما بابن لعروة لا يعرفه، والثانية تدل على فراسة وذكاء وكل ذلك دليل إعجاب وإكبار[1].

---

(١) الأغانى.

شعر عروة

فى تصويرى للأحداث التى جرت لعروة أوردت الكثير من شعره وأوردت أكثر من مقطوعة له ، وتحت عنوان : دستور الصعاليك ، أوردت قصيدة طويلة له وهى التى رواها الأصمعى كما روى بعض أبياتها الجاحظ فى البيان والتبيين ، وقد وثقت ذلك كله بذكر مصادره .

ولعروة شعر فى عديد من كتب الأدب ومصادره الأصيلة ، مثل : الكامل والأمالى والحيوان والأغانى والبيان والتبيين وغيرها ، وله كذلك ديوان شعر مطبوع وذائع بين الدارسين .

فهو شاعر من شعراء العصر الجاهلى ما فى ذلك ريب ، شأنه شأن امرىء القيس ، وطرفة بن العبد ، وعمرو بن كلثوم التغلبى ، وغيرهم من أعيان شعراء العصر .

ومن هنا كان احتفال كتب الأدب به ، وكانت تلك الوقفة وهذه الدراسة التى أتناوله بها .

ولا غرو فى ذلك ، فهو يستحق تلك الدراسة المستفيضة بشعره ولولا شعره ، لما استطعنا أن نكتب عنه تلك الصفحات ، ولما عرفنا أخباره ومبادئه ، وكان شأنه شأن كثير من الصعاليك المغمورين الذين لم ترد لهم أشعار ، وهم كثيرون مثل : شظاظ الضبى الذى ضرب به المثل فى اللصوصية ؛ فقيل : ألص من شظاظ ، ومثل : أبى حردبة المازنى الذى يقول عنه الراجز وعن مالك :

الله نجاك من القصيم
ومن أبى حردبة الأثيم
ومالك وسيفه المسموم

ومثل : وهب بن خالد . وغيرهم كثير[1] .

أما عروة بن الورد فهو صعلوك شاعر ، ما فى ذلك ريب ، ومن هنا كان ضرورياً أن نقف عند شعره محاولين التعرف على سمات شعره البارزة عند الدارسين .

١ — تصوير حياته :

أول سمات شعر عروة تصويرحياته وتمثيل تلك الحياة حتى تبدو واضحة جلية أمام من يسمع ذلك الشعر .

وأصدق الشعر ما صور الحياة ، وما عبر عن صاحبه ولامس نفسه ، فصدق فى ذلك التصوير ، وتلك قضية نقدية خاض فيها القدماء ووضعوها تحت عنوان الصدق ، وقالوا :

« تكون التجربة الشعرية صادقة إذا كانت إفضاء بما فى نفس الشاعر ، وبالحقيقة كما هى فى خاطر الشاعر وتفكيره فيبرزها الأديب فى إخلاص ، وذلك يتطلب تركيز القوى والانتباه فى التجربة حتى تكون تعبيراً عن ذات نفس الشاعر .

وليس معنى ذلك أن يكون الشاعر قد عانى التجربة بنفسه حتى يصفها ، بل يكفى أن يكون قد تخيلها أو لاحظها .

فهناك تجارب لا تمكن ظروف الحياة الشاعر من معايشتها ، وهنا قد يستطيع بخياله أن يعيش هذه التجربة ، وهنا قد تحس الصدق أو الكذب فى هذا الأدب ، وذلك راجع إلى ضعف الخيال أوقوته بحيث ينجح الأديب

---

(١) شعر الصعاليك ص ١١٠ وما قبلها بتصرف .

أو يفشل فى تصوير التجربة وتجسيمها ثم فى إثارة مشاعره استجابة لقوة الخيال[1] .

أما فى العصر الحاضر ، فقد نالت قضية التجربة الشعرية كثيراً من البحث ولا سيما عند مدرسة الديوان (العقاد والمازنى وشكرى) مما قد يخرجنا الاستطراد فيه عن سياق بحثنا عن عروة .

(أ) ونحن نرى عروة قد صور حياته مع البائسين من الصعاليك الذين كان يغزو بهم ، كما صور خلافهم عليه ، وضيقه بهم أحياناً ، ثم حمله نفسه على الرضى والسماحة معهم حتى من عليه واحد منهم (قرمل) بما حمل عليه أسيرته ، وأنهى خلافه مع أصحاب الكنيف الذين رآهم مثل الناس حينما أمرغوا واغتنوا . وقد أوردت أبياته فى ذلك فيما سبق من صفحات .

(ب) ويصور شعره بعض هؤلاء الصحاب الذين كانوا معه فى الكنيف وقد أصابا شيئاً من غنى ، جعلهما ينكران فضله ويمنعانه مما جعله يضيق بهما . ويقول :

أأى الناس آمن بعد بلج ... وقرة ، صاحبى ، بذى طلال
ألما أغزرت فى العس برك ... ودرعـــة بنتها ، نسيا فعالى
سمن على الربيع فهن ضبط ... لهن لبالب تحت السخال[2]

ونراه فى أبياته يعلن أساه وحزنه بعدما فعل صاحباه ، ويقول : إنه لن

---

(١) محاضرات فى النقد الأدبى للأستاذ الدكتور / أحمد أحمد بدوى رحمه الله (محاضرات غير مطبوعة) .

(٢) ديوانه ص ٥٩ ، وذى طلال : ماء قريب من الربذة . العس : القدح ، ضبط : أقوياء ، السخال : ولد المعز .

يأمن أحداً من الناس بعد صنيعهما معه، ونسيانهما أياديه ، إنها تجربة صادقة يمر بها كل يوم أناس ولكنا نجدها تتكرر ما بقيت الحياة ، وما بقي الخير في بعض النفوس ، والشح والجحود في بعضها الآخر .. وقد تكون تجربة عروة هينة ، لأنها تتحدث عن عنزين وتسميتهما (برك ودرعة) وتذكر لبنهما الغزير في العس ، وسمنهما أشياء هينة ، وتجربة بسيطة قريبة ، ولكنها في بيئة عروة الفقيرة ، شيء ذو بال ، وقد عبر عن تلك التجربة فأجاد التعبير .

وما أجمل الاستفهام الذي أفاد النفي ليدل على شدة تأثره بما فعلا معه .

وما أدق التعبير بلفظ « صاحبي » التي أفادت مخالطته إياهما وشدة تعلقه بهما حتى وهو واجد عليهما بعد أن منعاه ما طلب منهما .

(ج) وقد صور حنينه إلى سلمى في شعر معبر دقيق أوردت بعضه فيما سبق وهو كثير وافر في الديوان . يقول في بعضه :

تحن إلى سلمى بحـــر بلادها
وأنت عليها بالملا كنت أقدرا (١)
تحل بواد من كراء مضلة
تحاول سلمى أن أهاب وأحصرا (٢)
وكيف ترجيها ، وقد حيل دونها
وقد جاورت حيا بتيمن منكرا (٣)

---

(١) حر بلادها : أكرمها وأوسطها ، الملا : الأرض الواسعة .

(٢) كراء : أرض بهيشة كثيرة الأسد ، مضلة : أي التي تضل فيها الطريق ، أحصر : أضيق عن ذلك .

(٣) يقول : جاورت حيا متنائيا فلا أقدر على إتيانها . منكرا : أنكرهم ولا أعرفهم ، تيمن : أرض في شق اليمن .

إلى أن يقول :

وما أنس م الأشياء لا أنس قولها
لجارتها ، ما أن يعيش بأجورا (١)
لعلك يوماً أن تسرى ندامة
على بما جشمتنى يوم غضورا (٢)
فغربت إن لم تغربيهم فلا أرى
لى اليوم أدنى منك علما وأخبرا (٣)
قعيدك عمر الله ، هل لعليفى
كريماً ، إذا اسود الأنامل أزهرا (٤)
صبوراً على رزء الموالى ، وحافظا
لعرضى ، حتى يؤكل النبت أخضرا (٥)
أقب ، ومخماص الشتاء ، مرزأ
إذا اغبر أولاد الأذلة أسفرا (٦)

---

(١) أجور : معناه هنا : العقل .

(٢) تسرى ندامة : أى يصيبك الندم ، غضور : ماء لطى ، جشمتنى : حملتنى بسؤالك إياى فراقك .

(٣) يدعو عليها بالغربة والبعد إن لم تخبرهم عن شمائله .

(٤) قعيدك : قسم كأنه قال : أذكرك ، عمر الله : يريد بقاءه إذا اسود . الأنامل : أى حين يقدم الشتاء ويغشى الناس النيران والصلاء فتسود أناملهم ومعاصمهم .

(٥) حتى يؤكل النبت أخضرا : أى حتى يقبل الخضب ، ويورق الشجر فيعود العود أخضر بعد يبسه .

(٦) أقب ومخماص الشتاء : ضامر طاوى البطن فى السنة المجدبة . مرزأ : ينال خيرى ولا يخيب سائلى . وانظر ديوانه ص ٣٣ .

والأبيات تصوير لأساه وحنينه إلى سلمى بعد أن فارقته واختارت عليه والاستفهام فى « كيف ترجيها » يدل على اليأس ونفاد الأمل فى اللقاء بعد أن صارت إلى قوم غرباء لا تربطه بهم صلة ولا رابطة .

وهو يذكر أقوالها وأحاديثها عنه حتى وهى تذكر ما صار إليه من فقد العقل والفكر بعد تركها إياه . ولشدة وجده عليها وتعلقه بها يتمنى أن ينزل بها ما نزل به من ندم وحزن بما فعلته معه ، إذ آثرت الفراق .

ثم يدعو عليها إن لم تخبر الناس عن شيمه الفاضلة ، وخصاله الحميدة ، وهى التى تعرف عنه الكثير بعد تلك العشرة الطويلة ، والمخالطة المستمرة ، فهو قد يضعف حينا ، ولكنه يعود متماسكا قوياً يعتد بخصاله وتماسكه ، فهو لا يتأثر بالبرد ولا يصطلى كما يفعل الناس ، وهو صبور على مواليه - وهم كثير - حتى تنقضى السنة ، ويأتى الخصب . وهو ضامر هزيل إذا أجدب الناس فى الشتاء ، لأنه كريم جواد مرزأ فى ماله ورزقه .

وهكذا نجد شعر عروة خير مصور لحياته ، فى دقة وإجادة ، وهو يصوره فى غاراته فى أساه وحزنه ، وفى حال عوزه وفقره وفى حال سخطه على أصحابه ممن تنكروا له ، وفى كل حالاته من غير تكلف ولا إسراف .

٢ — تصوير فكره :

رأينا شعر عروة يصور حياته وعواطفه وأعرض الآن لموضوع آخر من سمات شعره ، وهو تصوير فكره ، وإيضاح مبادئه .

فمن مبادئه تخفيف آلام الناس ، وإذاعة البر بينهم وعدم الاستئثار بالرزق ، وهو يعتد بهذا المبدأ ويدافع عنه ويسخر ممن يلومه على شحوبه وهزال جسمه ، وتلك ولا ريب آراء تسبق الاشتراكية المعاصرة بقرون ، ونجد من عروة مدافعاً عنها فى صلابة واقتناع .

يقول :

وإنى امرؤ عافى إنائى شركة
وأنت امرؤ عافى إنائك واحـــد[1]

أتهزأ منى إن سمنـــت وأن ترى
بوجهى شحوب الحق والحق جاهد[2]

أقسم جسمى فى جســـوم كثيرة
وأحسو قراح المـاء والمـاء بارد[3]

والأبيات تصور فكره أبلغ تصوير وأوفاه .

٣ — ثم إن شعر عروة أغلبه مقطوعات قليلة الأبيات ، وتقل فيه القصائد الطويلة ، شأنه فى ذلك شأن سائر الشعراء الصعاليك الذين تعجلهم الحياة ولا يجدون فيها متسعاً للإطالة أو التجويد .

---

(١) عافى إنائى شركة : أى يأتينى من يشركنى فيه .

(٢) جاهد : أى يجهد الناس ويتعبهم .

(٣) أقسم جسمى : أى قوتى ، أحسو قراح المـاء : أى أشربه خالصاً من غير لبن أو نحوه ، والماء بارد : أى فى الشتاء وذلك أشد وأتعب . ديوانه ص ٢٩ .

وبعد هذه الصفحات عن عروة بن الورد أستطيع أن أقول :

١ — أبرزت الصفحات بعض ما كان فى العصر الجاهلى من جوانب تتعلق بالمال والعرض ، وموقف الصعاليك من ذلك حيث كانوا يستبيحونهما ما داموا قادرين على ذلك بقوة السيف ، وسرعة الحركة والتمكن من الحيازة .

٢ — جلت الصفحات كثيرا عن حياة عروة ، وجوانب الخير والبر عنده ، وأبانت بعض صفاته الطيبة التى أشاد بها الناس من بعد ، ولا سيما خلفاء بنى أمية وبنى العباس ، كما ذكرت بعض صفاته السلبية ، ومنها الاندفاع وقصر النظر ، وعدم تدبر الأمور مما أسلمه إلى الندم بعد ذلك .

٣ — عرضت الكثير من شعر عروة فى صورة تجلى غامضه وتبين مبهمه ، وتعرض المناسبة وتبرز الحادثة فى صورة سائغة من خلال عرض حياته .

ولا شك أن شعر عروة أكثر مما أورده ديوانه المتداول وليت الأيام تظهر ما خفى من شعره بظهور بعض المخطوطات هنا أو هناك ، ولاشك ـ حينئذ ـ أنها ستكون فرصة مواتية لدراسة شعر صادق مطبوع إلى حد بعيد م

٤ — جلوت سمات شعر عروة ، وصورت تعبيره عن حياته ، ومشاكله مهما كانت صغيرة هينة ، وتعبيره كذلك عن فكره وآرائه ، وظهور الصدق والطبع فيه فى صورة واضحة ، أستطيع أن أقول ـ من غير مبالغة ـ إنى لم أسبق إليها .

وهكذا أرجو أن يكون هذا البحث مساهمة جادة فى دراسة الشعر الجاهلى الذى ينطوى على الكثير .

د / محمد عرفة المغربى
أستاذ الأدب والنقد المساعد فى الكلية

المصادر والمراجع

١ ـ الأصمعيات ـ تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون طبعة دار المعارف بمصر ١٩٧٩ .

٢ ـ الأغانى ـ تحقيق إبراهيم الإبيارى المجلد الثالث طبعة دار الشعب .

٣ ـ أيام العرب فى الإسلام ـ تأليف محمد أحمد جاد المولى وآخرين طبعة عيسى الحلبى .

٤ ـ أيام العرب فى الجاهلية ـ تأليف محمد أحمد جاد المولى وآخرين .

٥ ـ البيان والتبيين ـ للجاحظ تحقيق عبد السلام هارون .

٦ ـ تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى ـ للدكتور شوقى ضيف طبعة دار المعارف الطبعة الثامنة .

٧ ـ الحياة العربية من الشعر الجاهلى ـ للدكتور أحمد محمد الحوفى طبعة دار نهضة مصر الطبعة الخامسة ١٩٧٣ م .

٨ ـ ديوان زهير ـ صنعه الأعلم الشنترى طبعة بيروت .

٩ ـ ديوان عروة بن الورد ـ طبعة دار صادر بيروت .

١٠ ـ الشعراء الصعاليك ـ للدكتور عبد الحليم حفنى طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٩ .

١١ ـ الشماخ بن ضرارة ـ حياته وشعره ـ لصلاح الهادى طبعة دار المعارف ١٩٦٨م .

١٢ ـ الصعلكة والفتوة فى الإسلام ـ للمرحوم أحمد أمين سلسلة اقرأ دار المعارف بمصر أبريل ١٩٥٢م .

١٣ — القاموس المحيط ـ طبعة المكتبة التجارية الكبرى بمصر .

١٤ — الكامل للمبرد ـ طبعة المكتبة التجارية الكبرى .

١٥ — محاضرات فى النقد الأدبى للدكتور أحمد أحمد بدوى ـ رحمه الله ـ (محاضرات غير مطبوعة) .

١٦ — المرأة فى الشعر الجاهلى ـ للدكتور أحمد محمد الحوفى .